الفصل الثالث:

الحياة الزوجية كما تصورها سورة التحريم

إبراهيم عيسى صيدم[1]

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد النبي الصادق الوعد الأمين، وعلى آله وصحابته ومن سار على هديه إلى يوم الدين، أما بعد: فإن إسلامنا الحنيف أَوْلَى الأسرة اهتماماً خاصاً، وأفرد لها أحكاماً تؤسس لها تأسيساً سليماً وتنظم علاقاتها تنظيماً دقيقاً، لأنها تُعَدّ اللَّبِنة الأهم في بناء المجتمع العفيف الطاهر الزكي. والناظر في كتاب الله تعالى يلمس هذا الاهتمام بالأسرة، ويدركه فيما تناولته آيات القرآن وسوره من توجيهات وإرشادات وأحكام تخص الأسرة تربيةً وبناءً. وهذه "سورة التحريم" إحدى السور التي تناولت العديد من الشؤون الأسرية وما يتعلق بالحياة الزوجية التي تمثلت في أروع مثل يُضرب من حياة النبي ﷺ مع أزواجه؛ لأن نبينا ﷺ هو الأسوة الحسنة التي بها نقتدي وعلى دربها نسير. وموضوعات هذه السورة من الموضوعات المهمة في بناء الأسرة والمجتمع. وتظهر أهميتها من خلال:

- أن المجتمع لا يزال بحاجة إلى توعية في مختلف المجالات، وبخاصة التي تخص الحياة الزوجية منها؛ لأن استمرار الحياة الزوجية ضمان لقيام مجتمع متماسك الأركان متين البنيان.
- كثيرون هم الذين يعتقدون أن المسلم لا يخطئ ولا ينبغي له أن يخطئ، وهذا تفكير قاصر؛ لأن كل ابن آدم خطّاء -عدا الأنبياء-، وعليه، فينبغي

(١) دكتوراه في أصول الدين، قسم التفسير وعلوم القرآن، جامعة الأزهر بالقاهرة، ٢٠١٢م. عضو رابطة علماء فلسطين. البريد الإلكتروني: isydum@iugaza.edu.ps.

تغيير هذه الثقافة لدى هؤلاء، وتنوير عقولهم بما صح وثبت، وليس شيء أثبت وأصح مما جاء في القرآن الكريم.

- تناوُل مِثْل هذه الدراسات يعمِّق النظر في كتاب الله، ويزيد الأجر والثواب عند الله، ويسدّ بعض حاجة المكتبة الإسلامية، وتعمّ به الفائدة -إن شاء الله-.

وقبل الخوض في المضامين التربوية المتعلقة بالحياة التي تناولتها "سورة التحريم" سأقف في عُجالة مع هذه المقدمات التي لا بدّ منها، وذلك على النحو الآتي:

١- مدنية السورة وتسميتها:

ذكر الإجماع على أنها مدنية غير واحد من العلماء،[١] وقال الآلوسي: "والمشهور أنها مدنية."[٢] وهي اثنتا عشرة آية ومائتان وسبع وأربعون كلمة وألف وستون حرفاً،[٣] وهي مثل سورة الطلاق في عدد آياتها وحروفها وتزيد عنها سورة الطلاق بكلمتين.

وتسمى سورة التحريم، وهذا الاسم المثبَت في المصاحف، والمشتهر من بين أسماء السورة، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى ما وقع من تحريم النبي ﷺ بعض ما هو مباح له على ما سيأتي في سبب النزول إن شاء الله. وتسمى سورة النبي ﷺ؛ لاستهلالها بذكر النبي ﷺ، ولِما اختصت به من حديث عن بيت النبوة وبعض المشكلات التي طرأت في هذا البيت الكريم. وتسمى كذلك سورة "اللِّمَ تُحَرِّم"، على حكاية جملة "لِمَ تُحرِّم" وجعلها بمنزلة الاسم، وإدخال لام التعريف العهدية

(١) انظر مطلع تفسير السورة عند القرطبي والثعالبي وابن عطية وغيرهم.

(٢) الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.)، ج٢٨، ص١٤٦.

(٣) الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم. **لباب التأويل في معاني التنزيل**، طبعة حسن حلمي الكتبي، ومحمد حسن جمالي الحلبي برخصة نظارة المعارف، ١٣١٧هـ، ج٤، ص٢٨٣.

obeikan.com

عليها وإدغام اللامين.[1] وقد ذكر السيوطي في الإتقان أنها سورة المتحرَّم وسورة لم تحرم.[2] والملاحظ على هذه التسميات كلها أنها تدور حول فلك واحد، وهو ما حرمه النبي ﷺ على نفسه. وذكر الآلوسي عن ابن الزبير أنها سورة النساء،[3] قال صاحب التحرير والتنوير: "ولم أقف عليه ولم يذكر صاحب الإتقان هذين في أسمائها."[4]

٢- ترتيب نزول السورة:

تأتي هذه السورة ضمن عِداد السور المدنية، وهي في السور الأواخر منها، فهي السورة الثانية والعشرون في ترتيب السور المدنية، وهي السورة الخامسة بعد المائة في ترتيب النزول،[5] أما من حيث ترتيب المصحف، فهي تُعدّ السورة السادسة والستون، تسبقها سورة الطلاق ويأتي بعدها سورة الملك، وهي السورة الخاتمة للجزء الثامن والعشرين في المصحف الشريف.

٣- جو نزول السورة:

هذه السورة الكريمة معدودة الخامسة بعد المائة في عداد نزول سور القرآن، يسبقها في ترتيب النزول سورة الحجرات ويأتي بعدها سورة الجمعة. ومن المعلوم أن نزول هذه الآيات كان بعد زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، كما دل على ذلك سبب النزول، وليس من المعلوم

(١) ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٨٨٤هـ، ج٢٨، ص٣٤٣.

(٢) السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن. **الإتقان في علوم القرآن**، بيروت: دار الفكر، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج١، ص١٥٤.

(٣) الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، ج٢٨، ص١٤٦.

(٤) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٨، ص٣٤٣.

(٥) الزركشي، أبو عبد الله محمد بن بهادر. **البرهان في علوم القرآن**، بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١هـ، ج١، ص١٩٤. انظر أيضاً:
- ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٨، ص٣٤٣.

obeikan.com

تحديداً زمان نزول الآيات، ولكن يمكن الوقوف على بعض الأحداث في كتب التاريخ والسِّيَر التي قد توقفنا -على الأقل- على تحديد الفترة الزمنية التي وقعت فيها تلك الأحداث والوقائع التي هي أسبابٌ لنزول الآيات. فقصة زيد وزينب وقع ذكرها في سورة الأحزاب، وهذه السورة باسم غزوة غزاها النبي ﷺ وهي غزوة الأحزاب أو الخندق، وقد وقعت هذه الغزوة في السنة الخامسة للهجرة.[1] ثم إن قدوم وفد بني تميم على رسول الله ﷺ كان سنة تسع من الهجرة، وفيهم نزلت الآيات (٤-٥) من سورة الحجرات،[2] وهذه السورة تسبق في نزولها سورة التحريم، كما سبق. وبناءً عليه، فإنه من الثابت أن تكون سورة التحريم نزلت بعد السنة الخامسة من الهجرة، ومن المحتمل أن تكون في التاسعة أو بعدها، والله أعلم. وأياً كانت الفترة الزمنية التي نزلت فيها السورة إلا أنها نزلت في زمن كانت الدولة الإسلامية الجديدة أكثر استقراراً وأماناً، وهذا الجو الذي نزلت فيه السورة يلقي بظلاله على الحياة البيتية في بيت النبوة الذي يحدث فيه ما يحدث في بيوت الأزواج، ويجري عليه ما يجري على الناس، وهذا ما نلمحه في سيرة النبي ﷺ، حيث لم نجد مثل هذه الخلافات في الفترة المكية ولا في بدايات العهد المدني، وإنما ظهرت مثل هذه الخلافات في وقت كانت الحياة فيه أكثر استقراراً وأماناً.

٤- مناسبة السورة لما قبلها:

السورة التي تسبق هذه السورة الكريمة هي سورة الطلاق، وبين السورتين من التناسب والتلازم ما لا يخفى إدراكه؛ فإن السورتين متشابهتان فيما تعرضان من أحكام وتتناولان من موضوعات، وهذه بعض وجوه التناسب بين السورتين:

---

(١) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك. **السيرة النبوية**، القاهرة: دار الحديث، ١٤١٩هـ/١٩٩٠م، ج٣، ص١٨٥.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص١٨٦-١٩٣.

- من حيث افتتاح الخطاب في السورتين، فكلتاهما افتُتِحت بخطاب النبي ﷺ.

- سورة الطلاق كانت في خصام نساء الأمة، وهذه السورة في خصومة نساء النبي ﷺ إعظاماً لمنصبهن أن يُذكرن مع سائر النسوة، فأفردهن بسورة خاصة.(١)

- اشتركت السورتان في الأحكام المخصوصة بالنساء، واشتراك الخطاب في الطلاق في أول تلك السورة يشترك مع الخطاب بالتحريم في أول هذه السورة؛ لأن الطلاق في أكثر الصور يشتمل على تحريم ما أحل الله.(٢)

- ووجه ارتباط أول هذه السورة بخاتمة التي قبلها ما ذكره الإمام البقاعي في نظم الدرر؛ إذ قال: "لما ختم سبحانه الطلاق بإحاطة علمه، وتنزل أمره بين الخافقين في تدبيره، دلّ عليه أول هذه السورة بإعلاء أمور الخلق بأمر وقع بين خير خلقه وبين نسائه اللاتي من خير النساء، واجتهد كل في إخفاء ما تعلق به منه، فأظهره سبحانه عتاباً لأزواج نبيه ﷺ في صورة عقابه؛ لأنه أبلغ رفقاً (به)؛ لأنه يكاد من شفقته يبخع نفسه الشريفة رحمة بأمته؛ تارة لطلب رضاهم، وأخرى رغبة في هداهم ...،"(٣) فكأن الآية في آخر الطلاق أقرّت حقائق مهمة، منها: حسن تدبير الله تعالى لهذا الكون من سماوات وأرض وما بينهما من مخلوقات، ومنها: إحاطة علم الله تعالى بكل شيء سراً كان أو علانية. وقد تجلت هذه الحقائق في مطلع

(١) هذان الوجهان ذكرهما الإمام الآلوسي في تفسيره، انظر:
- الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مرجع سابق، ج٢٨، ص١٤٦.

(٢) الرازي، فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر. **مفاتح الغيب**، الأستانة: مطبعة علي بك، (د. ت.)، ج٨، ص٢٣١.

(٣) البقاعي، أبو الحسن برهان الدين إبراهيم. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج٨، ص٤٣.

هذه السورة؛ إذ كان من حسن تدبير الله تعالى لهذا الكون ما ضربه مثلاً من حياة نبيه ﷺ الذي هو أكرم خلقه مع أزواجه اللاتي هن خير النساء؛ إذ نزع أمر التحليل والتحريم من يدي نبيه ﷺ، وجعل ذلك لله وحده، ثم وضع سبحانه أفضل الحلول لمثل هذه المشكلة في الحياة الزوجية. ونموذج آخر يدلل على إحاطة علم الله تعالى بكل شيء: أن النبي ﷺ أسرَّ إلى بعض أزواجه حديثاً فأفشته، فأطلعه الله عليه. فهذه وجوهٌ من التناسب بين السورتين تدلل على مدى التلازم والتلاحم بينها وتؤكدان أن القرآن تنزيل من لدن حكيم خبير.

٥- أهداف السورة ومحورها:

يدرك المتأمل للسورة الكريمة الجوَّ العام الذي تدور عليه موضوعاتها، والسرّ الذي ينظِّم هذه الموضوعات ويجمع بينها؛ إنها تدور حول محور السرية والكتمان، ووجوب كتم السر والمحافظة عليه، وأن فضحه خيانة ونقض للأمانة والوفاء بالمعهود. فالمقطع الأول من الآيات يدور على موضوع إسرار النبي ﷺ حديثاً لبعض أزواجه وكتمها إياه، ولكنها كشفت عن ذلك السر ونبّأت به، فأظهره الله ﷻ عليه، وحدث ما حدث من الإيلاء وعدم قرب نسائه ﷺ. ثم يأتي المقطع الثاني من مقاطع هذه السورة، وهو في غاية الأهمية، ويدور حول التربية للأهل والأبناء وللبيت كله، ومن أهم ما يحافظ على ترابط الأسرة وتماسكها هو المحافظة على أسرارها وعدم فضح ما يدور بين أفرادها؛ لأن فضحه خيانة قد تؤدي إلى دخول المفسدين بين أجزائها ومن ثم إفساد هذا النظام المترابط، وتفكيك ذلك التماسك المتين، وسيؤدي بعد ذلك إلى الفساد في الحال والمآل، وكما قيل: "البيوت أسرار"، فكان لزاماً توعيةُ أفراد الأسرة جميعاً؛ لدرء كل عدو يريد أن يقتحم على هذا البناء، ومحاربة كل من حاول إفساد نظامه. أما المقطع الثالث والأخير في السورة، فهو يدور على مَثَلين ضربهما الله تعالى؛ أحدهما للكافرين، والآخر للمؤمنين. أما المثل المضروب للكافرين فقد شمل نموذجين

لبيتي نبيين من أنبياء الله تعالى، وهما نوح ولوط -عليهما السلام-؛ إذ كانت خيانة زوجتيهما لهما بالنميمة، وكان إذا أوحي إليهما بشيء أفشتاه للمشركين، قاله الضحاك، وقيل: كانتا منافقتين، وقيل: كانت امرأة لوط تدل القوم بمن ورد على زوجها من أضياف، ولم يُقصَد بالخيانة هنا الزنا.(١)

وأما المثل المضروب للمؤمنين فقد اشتمل أيضاً على نموذجين مختلفين: أما الأول فهو عن امرأة فرعون، المرأة الصالحة في بيت كافر، وهو على النقيض تماماً للمثل السابق الذي اشتمل على الحديث عن امرأتين كافرتين في بيتين مؤمنين، ومعلوم أن امرأة فرعون خاضت معتركاً صعباً في ظل مواجهتها لجبروت فرعون الطاغية من جهة، ولعروض الحياة الدنيا وزينتها من ناحية أخرى، ولموقعها العالي في هذه المملكة من ناحية ثالثة، ولأنوثتها وضعفها من ناحية رابعة، وفوق كل هذا كانت امرأة واحدة في وسط هذه الضغوط التي تكالبت عليها من كل صوب. كل هذه التحديات عاشتها امرأة فرعون واقعاً ملموساً، ومع ذلك صبرت أمام هذه التحديات مجتمعة، وبقيت على إيمانها دون أن يُكشَف أمرها دهراً، فلما كُشِف أَمْر إيمانها أَمَر فرعون بتعذيبها، قيل: فدعت بهذه الدعوات لما عرف فرعون بإيمانها بموسى عليه السلام.(٢) وأما مريم -عليها السلام- فهي نموذج رائع آخر في العفة والطهارة والحصانة، وما كانت لتخون الأمانة في حفظ عرضها بل حافظت عليه، وصدقت بكلمات ربها وكانت نموذجاً للقانتين. فالتقت هذه الموضوعات على محور واحد يؤلف بينها ويجعلها وحدة واحدة مؤتلفة متماسكة كالبناء المتين، وهو محور السرية والكتمان وعدم الخيانة.

---

(١) أبو حيان، محمد بن يوسف. **البحر المحيط**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج٨، ص٢٨٩.

(٢) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، القاهرة، بيروت: دار الشروق، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ج٦، ص٣٦٢٢. انظر أيضاً:
- أبو حيان، **البحر المحيط**، مرجع سابق، ج٨، ص٢٩٠.

أولاً: النبي ﷺ زوجاً من خلال سورة التحريم

قال الله تعالى مُصَدِّراً هذه السورة الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا ٥ ﴾ [التحريم: ١ - ٥]. يتناول هذا المقطع من الآيات الكريمة من سورة التحريم حياة النبي ﷺ زوجاً، فتذكر موقفاً من المواقف التي مرّت بها الحياة الزوجية في بيت النبوة، وقد اشتمل على جملة من الآداب والأحكام، تأديباً لأمته وتعليماً لها وتربية للأزواج بما يحقق حياة دائمة سعيدة. ويحسن أن أبدأ بذكر سبب نزول هذه الآيات:

١- سبب نزول الآيات:

ورد في سبب نزول هذه الآيات ثلاثة أسباب أحدها ضعيف، ولذا فسأقتصر على ذكر السببين الصحيحين:

- ما أخرجه البخاري -واللفظ له- ومسلم[1] وغيرهما عن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، قالت: فتواصيْتُ أنا وحفصة أنَّ أيَّتَنا دخل

(١) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. **الجامع الصحيح**، بيروت: دار ابن كثير، اليمامة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، كتاب: الطلاق، باب: لم تحرم ما أحل الله لك، حديث رقم٤٩٦٦، ج٥، ص٢٠١٦. انظر أيضاً:

- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج. **الجامع الصحيح**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٤م، كتاب: الطلاق، باب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق، حديث رقم١٤٧٤،ج٢، ص١١٠٠.

عليها النبي ﷺ فلتقل: إني أجد فيك ريح مغافير،[1] أَكَلْتَ مغافير؟ فدخل على إحداهما، فقالت له ذلك، فقال: "بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود له". فنزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ ﴾ - إلى قوله ﷻ- ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [التحريم: ١ - ٤] لعائشة وحفصة، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ لقوله: "بل شربتُ عسلاً". وفي رواية أخرى للبخاري عَقِبَ هذه الرواية مباشرة: أن التي شرب النبي ﷺ عندها العسل حفصة، وأن اللاتي تواطأن عليه: عائشة وسودة وصفية. وذكر السيوطي في الدر المنثور رواية عن ابن عباس ﷺ أن التي شرب النبي ﷺ العسل عندها: سودة بنت زمعة، وأن اللاتي تواطأن عليه: عائشة وحفصة،[2] وفي رواية أخرى: عن عبد الله بن رافع أنها أم سلمة، وأن التي تواطأت عليه هي عائشة -رضي الله عنها-.[3]

- ذكر الإمام الماوردي في تفسيره أنها مارية أم إبراهيم، خلا بها رسول الله ﷺ في بيت حفصة بنت عمر، وقد خرجت لزيارة أبيها، فلما عادت وعلمت عتبت على النبي ﷺ فحرمها على نفسه إرضاء لحفصة، وأمرها أن لا تخبر أحداً من نسائه، فأخبرت به عائشة لمصافاةٍ كانت بينهما، وكانتا تتظاهران على نساء النبي ﷺ؛ أي تتعاونان، فحرّم مارية وطلق حفصة، واعتزل سائر نسائه تسعة وعشرين يوماً، وكان جعل على نفسه أن يُحرّمهن شهراً،

(١) المَغَافير: شيء يَنْضَحُه شَجَرُ العُرْفُط، حُلْو، وله رِيحٌ كريهة مُنْكَرة. انظر:
- ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد. **النهاية في غريب الحديث والأثر**، بيروت: المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٣، ص٧٠٣.

(٢) السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، القاهرة: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، المهندسين، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج١٤، ص٥٦٩.

(٣) المرجع السابق، ج١٤، ص٥٦٩.

فأنـزل الله هـذه الآيـة، فراجـع حفصـة واسـتحل ماريـة وعـاد إلـى سـائر نسـائه.[1]

٢- المشهد المنظور للحياة البيتية النبوية:

هذه السورة الكريمة تكشف ما يدور في حياة النبي ﷺ الخاصة في بيته، وما يجري بينه وبين أزواجه، وهذا من أخص خصائص الحياة الزوجية، لكن الأمر في الحياة الزوجية النبوية مختلف؛ لأن النبي ﷺ قدوة وأسوة حسنة بهداه تهتدي الأمة وعلى خطاه تسير، ولا شك في أن هذا المستور في حياته لا بدّ له وأن يُكشَف للناس حتى يتعرفوا على حياته، ويستفيدوا من طريقة تعامله ﷺ مع أزواجه في تعامل الزوج مع زوجه أو أزواجه. يقول سيد قطب -رحمه الله-: "ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتاباً مفتوحاً لأمته وللبشرية كلها، تقرأ فيه صور هذه العقيدة وترى فيه تطبيقاتها الواقعية. ومن ثم، لا يجعل فيها سراً مخبوءاً ولا ستراً مطوياً، بل يعرض جوانب كثيرة منها في القرآن، ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس في حياة الإنسان العادي حتى مواضع الضعف البشري الذي لا حيلة فيه لبشر. بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد في كشف هذه المواضع في حياة الرسول ﷺ للناس! إنه ليس له في نفسه شيء خاص، فهو لهذه الدعوة كله. فعلام يختبئ جانب من حياته ﷺ أو يخبأ؟ إن حياته هي المشهد المنظور القريب الممكن التطبيق من هذه العقيدة؛ وقد جاء ﷺ ليعرضها للناس في شخصه وفي حياته كما يعرضها بلسانه وتوجيهه، ولهذا خُلِق، ولهذا جاء." [2]

إن هذا الموقف من حياة النبي ﷺ يحدد لنا المفهوم الحقيقي الصحيح للأسرة، ويكشف عن حقيقة التعامل بين الزوجين، ليس شهوة قصيرة ومتعة عاجلة، ولا هو مشروع اقتصادي استهلاكي مرتبط بمنفعة كلّ من الزوجين

---

(١) الماوردي، أبو الحسين علي بن محمد بن حبيب. **النكت والعيون**، بيروت: دار الكتب العلمية ومؤسسة الكتب الثقافية، (د. ت.)، ج٦، ص٣٩.

(٢) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٦، ص٣٦٠٩-٣٦١٠.

Open Kan.com

بالآخر وقائم على المصالح المشتركة، متى انقضت تلك المصالح كان الانفكاك والانفصال، ولا هو مجرد عواطف وميول من كلا الطرفين للآخر، وإنما هو بناء لأسرة ممتدة الجذور ممتدة الفروع؛ جذورها تعود إلى أول أسرة خلقها الله تعالى واستخلفها على هذه الأرض -أسرة آدم وحواء- التي تفرعت عنها أُسَرٌ بقيت فروعها تمتد وتمتد إلى هذه اللحظة، ولا تزال تمتد، بل لا بد لها أن تبقى كذلك ليتحقق الهدف الأسمى من وجودها على هذه الأرض، وهي عمارة الأرض والمحافظة عليها بالكيفية التي أراد الله تعالى لها.

إن العالم اليوم قد تبدل حاله، وتغير مفهومه الصحيح للأسرة الحقيقية، وإنك لترى مَن قَصَر مفهومه للأسرة على المتعة والاستمتاع، وجعل حظه الأوفى منها قضاء شهوة أو متعة عاجلة، وإن من البشر مَن جعل الأسرة مشروعاً اقتصادياً ربحياً يتاجر بعِرضه ليكثِّر ماله ويستثمره ويزيد من رصيده، وبعضهم رفض فكرة الزواج من أصلها واستبدل بها فكرة الشراكة والصداقة واقترن بغيره من غير ضوابط أو قوانين تحكمه، ونسي هؤلاء وأولئك المقصد الأسمى الذي من أجله وُجِدوا، بل لم يفكر أحدهم في طبيعة خلقه وتكوينه، وما الذي يصلح له وما الذي لا يصلح! جهِل هؤلاء جميعاً أن الله تعالى خلق الذكر والأنثى، وأن من كلا الجنسين تتكون الأسرة، وأن هذه الأسرة لا بدّ أن تكون منضبطة بضوابط ومقيدة بقوانين تحكم سلوكها وتنظم حياتها، وأن هذه الأسرة لها وظائف وعليها واجبات، وأن أخص وظائفها أن تحقق الخلافة على هذه الأرض، ولهذه الوظيفة خُلقت، ولتحقيقها لا بد لها أن تعمل. لقد غاب هذا المفهوم للأسرة ووظيفتها عن المجتمعات غير الإسلامية وعن بعض المجتمعات الإسلامية. إن هذا المشهد المنظور من حياته ﷺ يكشف لنا عن طبيعة الأسرة على صورتها الصحيحة وطبيعة التعامل الأسري وطريق تحقيق الاستقرار بين أفراد الأسرة؛ ليتسنى لهم الاستمرار على طريق الاستخلاف الذي أراده الله تعالى منهم، فكان لا بد من تجاوز تلك العقبة الطارئة على حياة تلك الأسرة، والقيام من تلك العثرة والاستمرار في المسير، فجاءت كفارة اليمين. هذا هو المفهوم الواقعي

للأسرة الرشيدة، وهذا المشهد الواقعي بالنسبة لمعاصريه، والتاريخي بالنسبة لنا، بقي حيًّا فينا وفيمن سبقنا وسيبقى مشهداً حيًّا فيمن يأتي بعدنا، يستفيدون منه الدروسَ ويأخذون منه العِبَر، ولا خير في هذا العالم إن لم يستفِد ويعتبر.

٣- الغَيْرة داء النساء:

"الغَيْرة: كراهة شركة الغير في حقه،"[١] ومنه حديث عائشة زوج النبي ﷺ: "أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالت: فغِرت عليه...؛"[٢] أي إنها كرهت مشاركة غيرها له في حبها واستئثارها به، وكأنها خشيت أن يكون خروجه ﷺ من عندها ليذهب إلى غيرها، فوقعت منها الغَيْرة. والغَيْرة منها ما هو محمود ومنها ما هو مذموم؛ فمن الأول: غَيْرة الرجل على زوجه وابنته وأخته، ومَن لا يغار على عرضه فهو ديّوث، والغيرة في مثل هذا تعدّ من لوازم القوامة للرجل، وفَقْدها يعد عيباً. ومن الثاني: الغَيرة المفرطة التي تقع من كثير من النساء أو من الرجال، والتي تؤدي إلى الخروج عن الاستقامة والصواب. وعلى العكس تماماً فإن عدم الغَيْرة أيضاً مذموم. فمن الأمراض التي تعتري الحياة الزوجية أحياناً غَيْرة بعض النساء، والغَيْرة أمر بداخل المرأة أيًّا كانت، لم تسلم منها زوجات النبي ﷺ اللاتي هن أطهر النساء، وهي بذلك تُعدّ أمراً جِبِلِّياً مغروساً في فطرة المرأة. لقد رأينا نساء النبي ﷺ وقد أخذت ببعضهن الغَيرة مأخذها؛ فوقع ما وقع منهن من تآمر وتوافق سواءً على مارية أو مَن شرب النبي ﷺ عندها العسل، ثم تنفيذ ما اتُّفِق عليه، ثم كانت النتيجة أن حرَّم النبي ﷺ بعض ما أحل الله له، وما تلاه من غضب وقع منه ﷺ عليهن. يقول الشيخ محمد الغزالي: "وقد آخذهن الله بأمرين معروفين فى السيرة: الأول اتفاقهن على مطالبة النبى ﷺ بالمزيد من النفقة، وضيقهن بالمعيشة الناشفة التي التزمها، وقد رضين جميعاً بالبقاء معه

---

(١) الجرجاني، علي بن محمد علي. **التعريفات**، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ، ص٢١٠.

(٢) مسلم، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً، حديث رقم٢٨١٥، ج٤، ص٢١٦٨.

عندما أكد لهن أنه ما من بدّ من هذه الحياة لمن يريد الله ورسوله والدار الآخرة! أما الأمر الثاني فإن النبي ﷺ كان لطيف العشرة لين الجانب دميث الأخلاق، فأطمع ذلك بعض نسائه في الجراءة عليه -وكانت الغيرة هي السبب-، فزعمت إحداهن أنها شمّت منه رائحة غير طبيعية، فقال: شربتُ عسلاً عند زينب! فقالت: لعل نحلاً وقع على نبات مسيء. فقال: لا أعود إليه ولا تخبري أحداً. ثم ظهر أن القصة مفتعلة، وأنها مؤامرة لتزهيده في فلانة! وغضب الرسول ﷺ لما وقع، وهجر نساءه جميعاً حتى شاع أنه طلقهن! ونزلت سورة التحريم تطفئ هذه الفتنة وتؤدب من أحرج الرسول ﷺ وأساء المسلك."[1] إذن، ليست الغيرة بالشيء الهيّن، إنها قد تسوق صاحبها إلى سوء المسلك، وهي قد تسببت في إصابة البيت النبوي بالهمِّ والحَزَن.

٤- آثار الغَيرة المذمومة على الحياة الزوجية:

أصبح لا بد من التذكير ببعض الآثار التي تتركها الغَيرة بمعناها المذموم في الحياة الزوجية، وذلك مثل:

- أن الغَيرة قد تؤدي بصاحبها إلى الحقد، ولعل أسوأ موضوع يُثار أمام الزوجة هو موضوع الزواج، فمن النساء من تغضب ويتمعر وجهها وينتقع لونها عندما يُثار موضوع الزواج، لأنها الغَيرة، وهذا الأمر يتسبب في غرس الحقد في قلب هذه الزوجة على من تكلم بموضوع التعدد في الزواج أمامها، وقد يؤدي في النهاية إلى القطيعة وسوء العاقبة.

- قد تترك الغَيرة أثراً سيئاً من الهم والغمِّ الذي يحدث للزوجين أو لأحدهما، وقد رأينا رسولَ الله ﷺ وقد أصابه من الهمّ ما أصابه، وكذلك نساءَه الكريمات -رضي الله عنهن-، وإذا كان هذا وقع في أشرف بيت وأطهر بيت ومع خير خلق الله ﷺ فمن باب أولى أن يقع في بيوت غيره ﷺ، فليتنبَّه الأزواج

(١) الغزالي، محمد. **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن**، القاهرة، بيروت: دار الشروق، ٢٠٠٠م، ص٤٦٨.

obeikan.com

إلى ذلك. ولك أن تتخيل عندما يقع خلاف بين الزوجين كيف يكون حالهما، وكيف يكون حال أهل كلٍّ منهما! فلا يكون ذلك بسبب الغيْرة.

- قد تصبح الحياة الزوجية غير رتيبة وغير منتظمة، ويتزعزع بناؤها وتتخلل أركانها. وقد حدث من هذه الآثار في الحياة الزوجية النبوية، فاعتزل ﷺ نساءه تسعاً وعشرين ليلة. روى البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لم أزل حريصاً على أن أسال عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين ورد ذكرهما في قول الله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ﴿٤﴾ ﴾ [التحريم: ٤] حتى حجّ وحججت معه، وعدل وعدلت معه بإداوة، فتبرز ثم جاء فسكبت على يديه منها فتوضأ، فقلت له: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى فيهما: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ﴾؟ قال: واعجباً لك يا ابن عباس! هما عائشة وحفصة، ثم استقبل عمر الحديث يسوقه...."[1] وقد جاء فيه أن غسان كانت تعد العدة لقتال المسلمين، فجاءه صاحبه وضرب بابه ضرباً شديداً، فقال عمر ﷺ: أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم من ذلك وأهْول، طلق النبي ﷺ نساءه. وفيه أيضاً أن رسول الله ﷺ اعتزل نساءه تسعاً وعشرين ليلة، وكان قد قال: ما أنا بداخل عليهن شهراً"-من شدة موجدته[2] عليهن-. إنه لأمر عظيم، وكان له وقْعه على المسلمين، حتى لقد عدّه صاحب عمر ﷺ أعظم من غزو غسان للمسلمين. وكان له وقعه على النبي ﷺ؛ حيث وجد في نفسه موجدة شديدة على أزواجه وآلى أن يعتزلهن شهراً. إنها حياة مضطربة غير رتيبة ولا منتظمة. والسبب الأساس الذي أدى إلى الوصول إلى هذه الحال هو الغَيرة.

- الغيْرة تفتح باب الشك بين الزوجين على مصراعيه، وتوقع الأزواج في تخوين كل منهما للآخر، ومن ثم، تسوق إلى سوء ظن بعضهما ببعض وتجسس

(١) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: النكاح، باب: موعظة الرجل ابنته لحال زوجها، حديث رقم٤٨٩٥، ج٥، ص١٩٩١.

(٢) الموجدة: الغضب.

كل منهما على الآخر ومتابعة كل منهما للآخر. وحينئذٍ لا يكون للحياة طعم ولا معنىً نظراً لانعدام الثقة بين الزوجين.

– الغَيرة قد تؤدي إلى الكِبر، وهو من أخطر الأمراض التي تصيب المسلم؛ لأن مصير صاحبه إلى النار واستحقاق غضب الله وسخطه، والغَيْرة من الأسباب المؤدية إليه، وبخاصة إذا كان الزوج قد عدّد في الزوجات، فقد تدفع الغيْرة إحدى زوجاته إلى التعالي على الأخريات والتكبر عليهن، فتقارن بينها وبينهن لتقرر أنها أفضل منهن وأكثر جمالاً أو مالاً أو غير ذلك من وجوه التفضيل. إن الزوجة بطبعها تحب أن تستأثر بزوجها ولا تحب أن يشاركها فيه أحد، وإذا تزوج زوجها من أخرى ظهر هذا المرض فيها وبان وانكشف، وهذا الأمر قد ظهر في قصة نزول الآيات عندما تمالأت زوجتا النبي ﷺ عليه لئلاً يشرب عسلاً عند فلانة أو أن يطأ فلانة، وكان سببه الغيْرة.

– الغَيرة أبْعَد عن الإيثار، وأدْعَى إلى الاستئثار بالشيء وعدم مشاركة الآخرين فيه. لهذا كان لا بد من التنبيه إلى خطورة الغَيرة المذمومة على الحياة الزوجية، وأنه لا بد وأن تكون في حدود المسموح به شرعاً، والحذر من الإفراط فيها أو التفريط. ومن أهم الأسباب التي تُظهر الغَيرة عند النساء وتكشفها هي تعدد الزوجات، فإذا قدَّر الله ﷻ للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة، فلا بد للزوجة أن ترضى بقدر الله وأن تسلِّم لأمره ولا تبادر إلى أعمال قد توقعها فيما لا يرضي الله، وعليها أن تعِيَ أن تعدد الزوجات أمر مشروع فلا يصح أن تحرِّم ما أحل الله.

هذا بيان للتصور الإسلامي عن الغَيرة بمفهومَيْها المقبول والمردود، ولا سواء بين هذا التصور الذي يتوافق مع طبيعة الإنسان ويضع العلاج بما يتناسب وهذه الطبيعة، والتصور الغربي لها. والناظر في المجتمعات الغربية يلاحظ تسيّباً واضحاً في الأسرة وخلخلة بيِّنة لأركانها وانحرافاً أخلاقياً وسلوكياً مقيتاً، ولا تجد تلك الغيرة في تلك المجتمعات، فكانت نتيجة ذلك تفكك المجتمع وتفكك الأسرة

وانتشار الفاحشة وحوادث الاغتصاب. والغَيْرة وإن كانت مذمومة في بعض جوانبها إلا أنها تحافظ على أركان الأسرة وبنائها سلمياً، وتحفظ على المجتمع قِيَمه وأخلاقه ليبقى مجتمعاً قوياً متيناً متماسكاً.

٥- حُسْن المعاشرة بين الزوجين:

يلزم لاستمرار الحياة الزوجية بين الزوجين أن يكون بينهما حُسن المعاشرة ولين الجانب والمودة والرحمة والتآلف والمحبة المتبادلة، وهذا ما كان مترجماً ترجمة عملية في حياة النبي ﷺ مع أزواجه الكرام، فإنك لن تجد الكمال في حسن المعاملة -لا أقول في البيت وحسب، وإنما مع كل الناس مسلمهم وكافرهم- مثل معاملة النبي ﷺ، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ ﴿١﴾﴾ [التحريم: ١] وتأمل هذا التوافق والتناغم بين النبي ﷺ من جهة وأزواجه جميعاً من جهة أخرى. إنه الرضا التام بين الأزواج، وهذا ما أكدته الرواية في سبب النزول؛ إذ قال النبي ﷺ لحفصة عندما وجدت في نفسها مما أصاب ﷺ من مارية في بيتها -أي في بيت حفصة- وقد غارت غَيرة شديدة، وقد قالت له: قد رأيتُ مَن كان عندك، والله لقد سُؤْتَني... قال: "والله لأرْضِيَنَّك، فَإنّي مُسِرٌّ إلَيْك سِرًا فَاحْفَظِيه"، قالت: وما هو؟ قال: "إنّي أُشْهِدُك أنَّ سُرِّيَّتي هَذِهِ عَلَيَّ حَرَامٌ رِضًا لَكِ."[1] فقد كان ﷺ خير الأزواج إلى أزواجهم. وفي حديث عائشة -رضي الله عنها- -عند الإمام الترمذي- قالت: قال رسول الله ﷺ: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي..."[2] وما ينبغي للرجل أن يكون في بيته "دكتاتورياً" أو متصلباً عند رأيه، وإنما يشاور زوجه ويستمع إليها، فلعل رأيها يكون صواباً، وقد كان لأمنا خديجة -رضي

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج٢٣، ص٤٧٧.

(٢) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. **الجامع الصحيح**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.)، كتاب: المناقب، باب: فضل أزواج النبي ﷺ، حديث رقم٣٨٩٥، ج٥، ص٧٠٩. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح.

الله عنها- عند رسول الله ﷺ رأي. ثم إن البيوت أسرار لا ينبغي أن تُكشَف، وهذه الأسرار درجات، منها ما يكون خاصاً بين الزوج وزوجه ثم يتدرج بعد ذلك شيئاً فشيئاً، فيعمّ الأولاد والزوجات الأخريات إن كان له أكثر من زوجة. وإفشاء الأسرار في الحياة الزوجية يعمل على تفكك الأسرة ويتسبب في إيجاد شرخ بين الأزواج قد يزداد حِدّة حتى يصل الأمر إلى الطلاق؛ فلا بدّ من الحفاظ على الأسرة مترابطة متماسكة بحفظ أسرارها. وقد رأينا ما حدث في البيت النبوي الكريم عندما أسرّ النبي ﷺ إلى بعض أزواجه حديثاً خاصاً بينه وبينها وأمرها ألا تخبر به أحداً، لكنها أخبرت به بعض نسائه ﷺ وأفْشت سرّ رسول الله ﷺ، فأطلعه الله عليه، وحدث بعدها ما حدث من المقاطعة لنسائه واعتزاله لهن حتى لقد قيل: إنه طلق نساءه. ثم رجعت -برحمة من الله- العلاقات الزوجية في بيت النبوة إلى طبيعتها بعدما نزل الحكم الإلهي حلاًّ لهذه المشكلة، وليكون هذا الحكم سارياً في كل بيت من بيوت المسلمين بعد.

أين المجتمعات الإسلامية اليوم من هذه الأخلاق الكريمة؟! وأين المجتمعات الغربية التي تتغنى بالحرية وتتشدق بـ"الديمقراطية" من هذه المعاملة الزوجية الفريدة في بيت معلِّم البشرية ومؤدِّب الإنسانية؟! إن الحياة الزوجية في مجتمعات اليوم تفتقر إلى كثيرٍ من مثل هذه الآداب والأخلاق، بل تكاد المجتمعات الغربية وغيرها من المجتمعات غير الإسلامية تخلو من أدب التسامح والتواصل والتلاطف بين الزوجين، لكن المجتمع الإسلامي الأصيل يتمسك بقِيَمه وأخلاقه، ويتقلب بين القرآن والسنة في استلهام الآداب والفضائل ويجعلهما حدوده التي تحميه من الزيغ والانحراف، وتحفظه من الأمراض التي تهدم بناء الأسرة وتفتك بكيان المجتمع. وقد آن للأمة الإسلامية اليوم أن تعود إلى هويتها الإسلامية الأصيلة بعدما رأت بأم عينها ما حلّ بالمجتمعات التي لا تنتمي إلى دين، وشاهدت التفكك والقطيعة في بناء تلك المجتمعات؛ لأنها لم تُبنَ على

أساس متين، فساء بناؤها ولم تأتِ بنتاج طيب؛ لأن الأسرة فيها افتقدت جلَّ مقومات الأسرة الروحانية والعاطفية، وأصبحت الصلة التي تربط بناء الأسرة وتشد أركانها قائمة على المصالح المادية، فكان ما كان فيها من تشرذم من جهة، وتسيُّب وإباحية ولا مبالاة من جهة ثانية. إذن حُسْن المعاشرة بين الزوجين يقتضي أن تُبنَى العلاقة بينهما على التسامح والمحبة والرحمة، وأن يحفظ كلٌّ الآخر حاضراً وغائباً، وأن يتأدب الزوجان بالآداب السامية، ويتخلَّقوا بالأخلاق الفاضلة.

ثانياً: صفات الزوجة الصالحة ونماذج من النساء كما في السورة

الزوجة الصالحة سبب من أسباب السعادة في الدارين، إذا نظر إليها زوجها داخله السرور وشعر بالأمان والسكينة، وهي عون له على طاعة الله. وقد ذكرت سورة التحريم جوامع الصفات للزوجة الصالحة، نستعرضها في هذا المبحث، وذكرت لنا نماذج من التاريخ لنساء مؤمنات ونساء كافرات.

١- صفات الزوجة الصالحة:

إذا أراد الزوج أن يُقْدِم على الزواج كان أمامه اختياران: إما أن يختار زوجة ذات مال وحَسَب ونَسَب وجمال وغير ذلك من الصفات، فيتَّبِع في ذلك هواه ويجعل ميزان الدِّين جانباً لا يحكُم له إرادة ولا يستأنس به في اختيار، وإما أن يختار زوجة على أساس الدين لا على مقياس الهوى والمزاج. فأيّ الفريقين أحق بالسعادة وأهدى سبيلا؟! لذا، فإن الإسلام مهّد الطريق أمام السالكين وخيّرهم، وفي هذه السورة الكريمة وضع بين أيدينا هدايات هي صفات للزوجة الصالحة، منها ما هي عقدية وفكرية، ومنها ما هي تعبدية وعملية، ومنها ما هي خلْقِيّة تعود إلى طبيعة المرأة وبُنيتها الجسمية. وهذه وقفة مع هذه الصفات التي وردت في هذه السورة الكريمة، والتي أجملها قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ

عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارًا ﴿٥﴾ ﴾ [التحريم: ٥].

أ- مسلمات:

هذه أول صفة من صفات الزوجة الصالحة، أنها مسلمة، والإسلام يقتضي التسليم والخضوع والانقياد لأوامر الله ﷻ وتكليفاته، وهذا من أهم الأسس التي تجعل الحياة الزوجية أكثر استقراراً؛ لأن الزوجة إذا خضعت لأمر الله، وعلمت ما لها وما عليها -كذلك الزوج- أثمر هذا الانقياد استقراراً في بيت الزوجية يسوده الرضا والتآلف والمحبة، ومن هنا ندرك مدى عناية الإسلام في حثه على اختيار الزوجة الصالحة ذات الدين، بغضِّ النظر عن جمالها أو حسبها ونسبها أو مالها؛ لأن السعادة لا تأتي بالمال وحده ولا بالجمال وحده ولا بالحسب والنسب وحده كما يعتقد كثير من الناس، وإنما تحصل السعادة بوجود الدين أولاً، فإن كانت الزوجة ذات دين وجمال فذلك أفضل، وإن زاد المال والحسب والنسب فذلك خير كثير. ولهذا شواهد من الحياة عند بعض الأزواج تؤكده، فكم من زوج تزوج لأجل الجمال فكانت نهاية ذلك الزواج الطلاق! وكذا مَن تزوج لأجل المال أو الحسب والنسب، أو لأجل عرض دنيوي. لقد نبه القرآن الكريم الأزواج إلى هذه الصفة مبدأً، حفاظاً على بيت الزوجية من الانهيار أو التلف، وهذا يتضمن جانباً تربوياً عملياً لضبط السلوك والحفاظ على الأعمال والأفعال صالحة مستقيمة.

ب- مؤمنات:

الإيمان: هو التصديق بالقلب، فهو أمر يختص بالاعتقاد، وهو خلاف الإسلام الذي يعني الخضوع والانقياد. والإيمان إذا خالط القلب انعكست آثاره على الجوارح، فحسنت الأعمال واستقام السلوك وسلمت السرائر من الحقد والضغينة والحسد والغل، وأصبح المؤمن الحق مثالاً به يُحتذَى ويُقتَدى. وهذا له أثره في بيت الزوجية؛ فبصفة الإيمان وبصفة الإسلام

يتحقق الانضباط والاستقامة وصلاح الحال وهدوء البال. ومن أهم ما يثمره الإيمان في حياة الزوجين الرضا بما قضى الله تعالى وقدّر، فرُبَّ زواج تمّ بغصْبِ أحد الزوجين على الآخر، وهذا من شأنه أن يجعل الحياة بين الزوجين مستحيلة أو شبه مستحيلة، فإذا وُجِد الإيمان عند الزوجين أورثهم الرضا، وعلما أن زواجهما بقضاء من الله وقدر، فيقع التسليم بذلك. ومن ثمرات هذه الصفة تحصين المرأة ظاهراً وباطناً، ومن هنا نبه القرآن الكريم إليها لتتصف بها المرأة، وإلى أن يأخذها الزوج بالحسبان في الزوجة التي يختار بجانب صفة الإسلام؛ لأن الإيمان مانع عن كل معصية محفِّز لعمل كل طاعة.

وأبرز الأسباب التي تؤدي إلى وقوع المشكلات والخلافات في الحياة الزوجية، ضعف الإيمان، مما يؤدي إلى تجاوز الحدود التي حددها الشرع للأزواج، ووقوع المخالفة والاختلاف، ووجود الإيمان يمنع وقوع ذلك. والناظر إلى المجتمعات الإسلامية اليوم يرى غياب مفهوم الإيمان والإسلام عن كثير من الأسر المسلمة، وقَصْر مفهومه على بعض الشعائر الدينية من صلاة وصيام وصدقة وحج ونسك وغيرها فقط، وغاب عن هؤلاء مفهوم التربية وآداب المعاملة وحُسْن المعاشرة، وهذا انعكس سلباً على تلك الأسر، فوقعت فيها المشكلات والخلافات وساءت فيها الأخلاق وتمزقت أركانها، وأصبح كلُّ فرد من أفراد تلك الأسر فاقداً روابط المودة والقرابة، منطوياً على نفسه كأن الآخرين من أفراد أسرته لا يعنونه بشيء. هذا على مستوى الأسر في المجتمعات المسلمة، أما المجتمعات الكافرة فقد غاب عنها هذا المفهوم بالكلية، فلا يضبطها ضابط ولا يحكمها ضمير. فغياب المفهوم الحقيقي للإيمان والإسلام مؤذِن بخراب البيوت والأسر وبدمار المجتمعات، ووجوده يحقق الترابط والمودة والتآلف ويؤدي إلى السعادة الدائمة على مستوى الأزواج والأسر والمجتمعات عامة، ومن هنا كان أول صفة في الزوجة هي الإسلام والإيمان.

ت- قانتات:

معنى قانتات: طائعات لله،[1] والقنوت في اللغة يطلق ويراد به عدة معانٍ، مثل: الإمساك عن الكلام أو السكوت، والدعاء والخشوع والإقرار بالعبودية، والطاعة، والقيام وإطالة القيام، ويقال للمصلي قانت، وقنتت المرأة لبعلها: أقرَّت أي سكنت وانقادت.[2] ويتم تحديد هذه المعاني حسب السياق الذي وردت فيه، وقد وردت في هذا السياق الذي في سورة التحريم كل هذه المعاني؛ فلا بد أن تكون الزوجة ذات لسان جميل ينطق بأعذب الكلام وأحسنه، ممسكة عن الكلام الفاحش البذيء وعن الغيبة والنميمة، ساكتة عن الثرثرة، خاشعة لله مقرّة له بالعبودية منقادة له بالطاعة، قائمة على صلاتها ودعائها، مطيعة لزوجها منقادة له. هذه الزوجة التي توافرت فيها هذه المعاني هي الزوجة الصالحة المرضية التي تنبني بها أسرة سليمة متينة. أما الزوجة التي تكون بخلاف هذه المعاني ولا تتوفر فيها هذه الصفات فلا تتسم بالصلاح، ولا يمكن لأسرة صالحة أن تنبني على مثل هذه الزوجة. ولهذا ينبغي للرجل الذي يُقدِم على مشروع الزواج أن يتخير من النساء ما كانت قد تربّت في بيتها على هذه الآداب الصالحة والمبادئ السامية.

ث- تائبات:

التوب: ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار؛ فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذِر لم أفعل، أو يقول فعلتُ لأجل كذا، أو فعلتُ وأسأت وقد أقلعتُ، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة. والتوبة في الشرع ترك الذنب لقُبحه والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يُتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت

---

(١) الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٤٨٩.

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، (د. ت.)، ج٢، ص٧٣، مادة: "قنت".

هذه الأربع فقد كَمُل شرائطُ التوبة.[1] وهذا لعمري مبدأ أساس من المبادئ التي تقوم عليها الحياة الزوجية؛ إذ هو خط الرجوع عن الخطأ الذي يطرأ على حياة الزوجين، وهو السبيل الأفضل لعود المياه إلى مجاريها، فإنه قد يحدث في الحياة الزوجية ما يعكّر صفوها من منغصات الحياة، وقد حدث هذا في بيت النبوة كما في سورة التحريم، فلما وقعت المكاشفة والاعتراف بالخطأ وكان الرجوع عن ذلك الخطأ، كانت استقامة الحياة في بيت الزوجية. فليس من العيب أن يقع الزوج أو الزوجة في الخطأ، ولكن العيب أن يستمرا في الخطأ ولا يرجعا عنه. فهذه الصفة تربّي الزوجين على الصراحة والمكاشفة، وتزرع في نفسيْهما التواضع وخضوع كلٍّ منهما للآخر والمرونة في التعامل، وتستبقي على ذلكم الرباط موصولاً محافَظاً عليه، ليتولد عنه المودة والرحمة.

جـ- عابدات:

العبودية مرتبة عالية ومنزلة سامية لا يصل إليها من عباد الله إلا مَن أراد الله به خيراً، "وأصل العبودية الخضوع والتذلل."[2] "والعبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى."[3] وإذا كانت العبادة تعني الطاعة والتذلل فإن هذا معناه أن كل واحد من الزوجين سوف يقوم بما عليه من الواجبات والمسؤوليات، ويعرف ما عليه من الحقوق تجاه الآخر، والتزامه بهذا يحقق الألفة والمحبة بين الزوجين ويديم العشرة بينهما. واتصاف الزوجين بهذه الصفة يجعلهما خاضعين لأمر الله متذللين له، مما يجعلهما مستقيمين على منهج الله قائمين على حدوده حافظين لبيتهما، عاملين على خدمة بعضهما بما يرضي الله تعالى، وهذا يترك أثراً على استقامة الحياة الزوجية وديمومتها. وما أجمل ما يحمله لفظ "العبودية" من

(١) الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. **المفردات في غريب القرآن**، مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، (د. ت.)، ص٩٨.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج٣، ص٢٧٣.

(٣) الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ص٤١٥.

obeikan.com

معانٍ، والتي تتمثل في أن يكون كلٌّ منهما متذللاً للآخر خاضعاً له حتى تستقيم حياتهما على الحق ويُنتِجا ذرية صالحة مباركة طيبة.

حـ- سائحات:

سائحات: أي صائمات، وسمي الصائم سائحاً لأنه كالسائح في السفر بغير زاد، وأصل السياحة الاستمرار على الذهاب في الأرض كالماء الذي يسيح، والصائم مستمر على فعل الطاعة وترك المشتهى وهو الأكل والشرب والوقاع،[1] والسِّياحةُ الذهاب في الأَرض للعبادة والتَّرَهُّب.[2] هذه المعاني لا بد أن تكون متحققة في كلا الزوجين، والصوم وِجاء، يحبس صاحبه عن الوقوع في الإثم والمعصية، وهو مما تشتد الحاجة إليه في الحياة الزوجية؛ لأن المعاصي تفسد وُدَّها وتعكِّر صفوها، والصوم يحجب هذه المعاصي. إن شأن الصوم عظيم؛ إذ يعمل على تهذيب الحياة الزوجية، والموازنة بين المادية والروحانية، ولذلك كان وصف الآية الكريمة من سورة التحريم للزوجة بهذه الصفة لما فيها من كبح الشهوة والإقبال على الطاعة، ولهذا قال ابن حجر: "إن المطلوب من الصوم في الأصل كسر الشهوة."[3] ومتى كُسِرت الشهوة -التي هي أهم مداخل الشيطان على الإنسان- كان الإقبال على الطاعة، ومتى كان بيت الزوجية قائماً على طاعة الله بعيداً عن معصيته، اجتنبه الشيطان وساده الأمن والأمان.

خـ- ثيبات وأبكاراً:

هاتان الصفتان ذُكِرتا تعقيباً على ما حدث في الحياة الزوجية في بيت النبوة؛ بأن الله تعالى سوف يبدل نبيه ﷺ بزوجات تكون فيهن تلك الصفات

---

(١) الماوردي، **النكت والعيون**، مرجع سابق، ج٦، ص٤٢.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٩٢.

(٣) العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ، ج٩، ص١١٠.

سالفة الذكر بجانب هاتين الصفتين -الثيوبة والبكارة- على نحو ما كانت عليه نساؤه ﷺ، وهذا سوف يقع فيما لو خالفنه ﷺ أو تحالفن وتواطأن عليه، أَما وقد تابت نساؤه ﷺ ورجعن عما فعلنه فلا شك في أن أمر الحياة سيعود إلى وضعه الطبيعي من الاستقامة وحُسْن الحال، وهو ما وقع فعلاً.

أقول: إن المقبلين من الرجال على الزواج يختلفون باختلاف أحوالهم؛ إذ منهم البكر ومنهم الثيب، ومنهم الشاب ومنهم مَن تقدمت به السن، واختلاف أحوالهم هذه يتم بناءً عليها اختلافهم في وجهاتهم عند اختيارهم زوجاتهم، وكل واحد منهم يختار ما يناسب حاله، وهي ما جرت به العادات في بعض المجتمعات لا على سبيل الإلزام. ومن الملاحظ أن النسبة الأكبر من الرجال الذين تقدمت بهم السن وقد سبق لهم الزواج يتقدمون للزواج من الثيبات؛ لأن شعوراً داخلياً ينتابهم بأن هذا هو الأنسب لحالهم والأليق بهم، بخلاف الشباب فإنهم يتقدمون للزواج من الأبكار؛ لشعورهم بأن هذا هو الأليق بهم والأنسب لحالهم، ولذلك قال ﷺ لجابر بن عبد الله - وقد كان حديث عهد بعرس، فيما يرويه البخاري-: "أتزوجت؟" قلت: نعم، قال: "أبِكراً أم ثيباً؟" قال: قلت: بل ثيباً. قال: "فهلّا بكراً تلاعبها وتلاعبك."[1] فهذه الملاطفة النبوية لهذا الصحابي الجليل جاءت لِمَا رأى النبي ﷺ من حاله، فكان الأنسب له أن يتزوج بكراً لا ثيباً. وعلى كل حال، فإن الأحوال تختلف عند المقبلين على الزواج، وقد أثبتت التجارب أن بعض من تقدمت بهم السن تزوج من بكر حديثة السن، فكانت نتيجة ذلك الزواج سيئة. وقد رأينا كذلك من فَقَد زوجته وله منها أطفال فتزوج من فتاة حديثة السن، فكانت النتيجة سيئة كذلك. إن العاقل يعاتب من كان في الستينات من عمره إذا تزوج فتاة في العشرينات من عمرها؛ لأن ثمَّ بوناً شاسعاً بينهما من حيث طبيعة التفكير والإدراك، ومن حيث البنية الجسدية

(١) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: النكاح، باب: تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة، حديث رقم٤٩٤٩، ج٥، ص٢٠٠٩.

ومتطلبات المعاشرة، ومن حيث الشكل والمضمون. وهذه حقائق لا أقولها اعتراضاً على ما شرعه الله تعالى -فمعاذ الله أن أعترض على حكم له سبحانه- ولكن من خلال فهمي لحكم الله تعالى بأن المماثلة والمقاربة بين الزوجين أدوم للعشرة، وإن كان الكل جائزاً، والله أعلم.

إذن، هذه صفات الزوجة الصالحة التي يمكن أن نبني من خلالها مجتمعاً سليماً، وهي من جوامع الصفات التي تبني الشخصية المسلمة الصالحة ظاهراً وباطناً. وهي صفات منها العقدية ومنها التعبدية ومنها الخِلقيّة. ويحسن هنا أن أنقل كلمة لسيد قطب -رحمه الله- في هذا المضمار؛ إذ يقول: ".. ويتعين حينئذٍ على من يريد أن ينشئ بيتاً مسلماً أن يبحث أولاً عن حارسة للقلعة تستمد تصورها من تصوره هو من الإسلام، وسيضحّي في هذا بأشياء: سيضحّي بالالتماع الكاذب في المرأة، سيضحّي بخضراء الدمن، سيضحّي بالمظهر البراق للجيف الطافية على وجه المجتمع، ليبحث عن ذات الدين التي تعينه على بناء بيت مسلم وعلى إنشاء قلعة مسلمة."[1]

٢- نماذج من النساء في سورة التحريم:

ذكرت السورة نموذجين من النساء في التاريخ: نموذجاً ضربه الله تعالى مثلاً للكافرين، والآخر ضربه الله مثلاً للمؤمنين، وكلا النموذجين يمثلان جانباً مهماً من جوانب الحياة الزوجية، ولهما علاقة وطيدة الصلة بالحياة الزوجية في بيت النبوة. قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم: ١٠ - ١٢].

---

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٦، ص٣٦٢٠.

أ- المثل الأول المضروب للكافرين:

مثل امرأة نوح وامرأة لوط، وهما زوجتان لعبدين من عباد الله صالحين، ونبيّين من أنبياء الله، ولكنهما اختارتا الكفر على الإيمان والنكول عن متابعة أنبياء الله مع قربهما منهما وملازمتهما لهما، ومع ذلك أصرّتا على الكفر فخانتاهما. ولم تكن خيانة امرأتي نوح ولوط -عليهما السلام- في الفاحشة. قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما. قال القشيري: وهذا إجماع من المفسرين إنما كانت خيانتهما في الدين، وكانتا مشركتين.[1] وقد فسر العلماء معنى الخيانة هنا على أقوال، أظهرها:

- أن الخيانة هنا بكفرهما، وكانت امرأة نوح ﷺ تقول: هو مجنون، وامرأة لوط ﷺ كانت تخبر بأضيافه.
- أن خيانتهما بالنميمة، فكان إذا أوحي للنبيين -عليهما السلام- بشيء أفشتاه للمشركين.
- أن خيانتهما بنفاقهما.[2]

قال الراغب: "الخيانة والنفاق واحد، إلا أن الخيانة تُقال اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتباراً بالدِّين، ثم يتداخلان، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر. ونقيض الخيانة: الأمانة."[3] فهذه قصة امرأتي نوح ولوط -عليهما السلام-، وما وقع منهما من الخيانة يعد عجيبة من العجائب وغريبة من الغرائب؛ إذ لا يليق بامرأتين هذا موقعهما في أمة نبي أن يحصل منهما الكفر؛ إذ إن موقعهما تحت نبيين صالحين يدعو إلى التعجب من شأنهما، واستغراب حصول الكفر منهما واختياره على الإيمان.

---

(١) ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي. **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرون، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج١٩، ص٢١٥-٢١٦.

(٢) المرجع السابق، ج١٩، ص٢١٥-٢١٦.

(٣) الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ج١، ص٢١٦.

obeikan.com

ب- المثل الثاني المضروب للمؤمنين:

يذكر نموذجين في التاريخ: النموذج الأول: امرأة فرعون؛ التي تحدت جبروت الطغاة، وعزفت عن مغريات الحياة الدنيا وزينتِها وتخلَّت عن مركزها الاجتماعي المهيب، ورضيت بما عند الله تعالى، وصبرت أمام كل هذه التحديات، ودعت ربها سبحانه أن ينجّيها من خضم هذا الكفر الطاغي. يقول سيد قطب -رحمه الله-: "ودعاء امرأة فرعون وموقفها مَثَل للاستعلاء على عَرض الحياة الدنيا في أزهى صوره؛ فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ في قصر فرعون -أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي-، ولكنها استعلت على هذا بالإيمان، ولم تعرض عن هذا العرض فحسب، بل اعتبرته شراً ودنساً وبلاءً تستعيذ بالله منه وتتفلت من عقابيله،[1] وطلبت النجاة منه، وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية، -وهذا فضل آخر عظيم- فالمرأة أشد شعوراً وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته، ولكن هذه المرأة وحدها في وسط ضغط المجتمع وضغط القصر وضغط الملك وضغط الحاشية والمقام الملوكي. في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء وحدها في خضم هذا الكفر الطاغي."[2] والنموذج الثاني: مريم بنت عمران، وهي نموذج العفة والطهارة، ورمز الإيمان والطاعة والانقياد، ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم: ١٢]. فهي ﴿ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ﴾ ذات نسب شريف وأصل طاهر، ثم إنها ﴿ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾، والإحصان: جعل الشيء حصيناً، أي لا يُسلك إليه. ومعناه: منعت فرجها عن الرجال،[3] وهذا يبرئها مما رمتها به "يهود" من الزنا. إن ما

---

(١) العَقابيل: بقايا العِلّة والعداوة والعِشق، واحدها عُقْبُولة. انظر:
- ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج١١، ص٤٦٦، مادة "عقبل".

(٢) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٦، ص٣٦٢٢.

(٣) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٨، ص٣٧٨.

وقع من مريم -عليها السلام- لم يكن خيانة، وإنما هو نفخة نفخها الأمين جبريل ﷺ فيها حين تمثل لها بشراً سوياً، فكان من تلك النفخة روح الله عيسى ﷺ، وهذا ما أفادته "الفاء" الداخلة على قوله تعالى: ﴿ فَنَفَخْنَا ﴾. قال ابن عاشور: "وتفريع ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ تفريع العطية على العمل لأجله؛ أي جزيناها على إحصان فرجها، أي؛ بأن كوّن الله فيه نبيئاً بصفة خارقة للعادة، فخلد بذلك ذكرها في الصالحات."[1] وتأتي بعد ذلك خصلة تعود إلى سلامة الاعتقاد وصحة النية ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾، وهذا التصديق يصحح المسار ويقوّم السلوك. وأخيراً ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ فهي من أوائل مَن يُقال عنهم إنهم قانتون، وهي مَثَل يُضرب للتجرد لطاعة الله تعالى، بل وللمكثرين في الطاعة. قال ابن عاشور: "وهذه الآية مثال في علم المعاني، ونكتته هنا: الإشارة إلى أنها في عداد أهل الإكثار من العبادة، وأن شأن ذلك أن يكون للرجال؛ لأن نساء بني إسرائيل كن معفيات من عبادات كثيرة."[2] هذه المعاني في جملتها يجب أن تتحقق في المرأة كي تكون صالحة. إن مريم -عليها السلام- قد جمعت بين جوامع أمور الدين الثلاثة: العقيدة والتشريع والأخلاق، ومن جمع هذه الأمور الثلاثة استحق أن يتصف بالكمال وأن يُخلّد ذكره.

إذن، هذان نموذجان يضربهما الله تعالى للمؤمنين؛ امرأة فرعون التي تعد نموذجاً عالياً للتجرد لله من كل المؤثرات والمعوقات على طريق الإيمان والثبات، ومريم ابنت عمران التي تعد مثلاً للتجرد لله منذ نشأتها،[3] وكلا النموذجين يمثلان نموذجاً رائعاً للمرأة الصالحة. أخرج الشيخان عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول ﷺ: "كمل من الرجال

(١) المرجع سابق، ج٢٨، ص٣٧٨.

(٢) المرجع سابق، ج٢٨، ص٣٧٨.

(٣) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٦، ص٣٦٢٢.

كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام."[1]

ت- علاقة المثلين المضروبين بالمقطع الأول:

عرفنا سبب نزول المقطع الأول من الآيات الكريمة، وأنه نزل في شأن بعض نساء النبي ﷺ، وما وقع من إحداهن من كشف سر النبي ﷺ، وكان هذا أمراً عظيماً وخرقاً واضحاً لما كتمها إياه. فكان نزول تلك الآيات تأديباً لنسائه ﷺ ونساء المؤمنين عموماً. وزيادة في التأديب ضرب الله هذين المثلين في آخر السورة: أولهما لِما وقع من كفر امرأتي نوح ولوط -عليهما السلام- وهما نبيان من أنبياء الله صالحان، ومع هذا فقد خانتاهما ولم تحفظا سرهما، فكان ما كان من حلول عقوبة الله تعالى بهما، ولم ينفعهما صلتهما بأنبياء الله؛ لأنه لا وساطة ولا شفاعة في الكفر والإيمان. والمثل الآخر ضربه الله تعالى لتطّلع عليه نساء النبي ﷺ، وتتأسى به نساء المؤمنين. قال يحيى بن سلام تعقيباً على هذين المثلين: مثل ضربه الله يحذر به عائشة وحفصة من المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، ثم ضرب لهما مثلاً بامرأة فرعون ومريم بنت عمران ترغيباً في التمسك بالطاعات والثبات على الدين.[2] وذكر الزمخشري كلاماً أشبه بكلام يحيى بن سلام، حيث قال: "وفي طي هذين التمثيلين تعريض بأمي المؤمنين المذكورتين في أول السورة، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله -ﷺ- بما كرهه، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده لما في التمثيل من ذكر الكفر، ونحوه في التغليظ قوله تعالى: ﴿ وَمَن

---

(١) البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم: ١١ - ١٢]، حديث رقم٣٢٣٠، ج٣، ص١٢٥٢. انظر أيضاً:
- مسلم، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: فضائل الصحابة ﷺ، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين -رضي الله تعالى عنها-، حديث رقم٢٤٣١، ج٤، ص١٨٨٦.

(٢) ابن حيان، **البحر المحيط**، مرجع سابق، ج٨، ص٢٩٠.

كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين، وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله ﷺ، فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين، والتعريض بحفصة أرجح؛ لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله ﷺ، وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حداً يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره."[1]

ث- العبرة من المثلين المضروبين في السورة:

اهتم القرآن الكريم بضرب الأمثال، فوردت في مواضع كثيرة منه بين التصريح أحياناً والتلميح أخرى، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزمر: ٢٧]. يقول محمد عبد المنعم خفاجي -رحمه الله-: "ولما كان التمثيل يصار إليه لكشف المعنى الممثل له ورفع الحجاب عنه وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس.. فإن المعنى الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة من الوهم، شاعت الأمثال في الكتب الإلهية وفشت في عبارات البلغاء وإشارات الحكماء، فيمثل الحقير بالحقير، كما يمثل العظيم بالعظيم وإن كان الممثل أعظم من كل عظيم، كما مثل الله سبحانه وتعالى في الإنجيل غل الصدر بالنخالة، والقلوب القاسية بالحصاة."[2] وهذه جملة من العبر المستفادة من ضرب هذين المثلين في سورة التحريم:

الفائدة الأولى: أن هذين المثلين فيهما رسالة قوية إلى النساء عامة، ونساء النبي ﷺ خاصة، بأن ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المدثر: ٣٨]، وأن "من بطّأ به عمله

(١) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. **الكشاف**، الرياض: مطبعة العبيكان، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج٦، ص١٦٤.

(٢) خفاجي، محمد عبد المنعم. **تفسير القرآن الحكيم**، النجف الأشرف: مكتبة النجاح، ودار العهد الجديدة، (د. ت.)، ج١، ص١١٥.

openkan.com

لم يسرع به نسبه."[1] قال سيد قطب -رحمه الله-: "فلا كرامة ولا شفاعة في أمر الكفر والإيمان، وأمر الخيانة في العقيدة حتى لأزواج الأنبياء."[2] إن امرأتي نوح ولوط -عليهما السلام- لم تنفعهما صلتهما بأنبياء الله تعالى، ولم يدفع ذلك عنهما عذابه، كما أن امرأة فرعون لم يضرها وصلتها بفرعون الطاغية.

الفائدة الثانية: جمع الله تعالى في التمثيل بين التي لها زوج والتي لا زوج لها تسلية للأرامل وتطييباً لقلوبهن.[3]

الفائدة الثالثة: المحافظة على الأسرة بحفظ أسرارها، وأن إفشاء الأسرار يعد خيانة يعاقَب عليها الإنسان.

الفائدة الرابعة: منح الإسلام للمرأة حق الاختيار، وجعلها بين خيارين: إما أن تختار طريق امرأتي نوح ولوط -عليهما السلام-، وإما أن تختار طريق آسيا امرأة فرعون ومريم بنت عمران، ولا سواء بين الخيارين، فإن أحدهما يؤدي إلى عذاب الله وسخطه، والآخر يؤدي إلى رضا الله وجنته. هكذا شأن القرآن الكريم أن يذكر الشيء ونقيضه، وهذا نجده في مواضع كثيرة منه، فيذكر مرة الجنة يتبعها بذكر النار، ومرة يذكر المؤمنين يردفهم بذكر الكافرين، وهكذا...، وقد ذكر هنا مثلين في شأن نساء كافرات في بيوت صالحين، وفي المقابل مؤمنة في بيت كافر، وهذا طريق حسن في الدعوة يستبين به المرء السبيل ويسير في اختياره على بصيرة.

الفائدة الخامسة: إن الإنسان يرحل من هذه الدنيا ويبقى ذكره، فإن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر، وقد خلّد الله تعالى ذكر تلك النسوة؛ فأما امرأتا

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في:
- مسلم، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، حديث رقم٢٦٩٩، ج٤، ص٢٠٧٤.

(٢) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٦، ص٣٦٢١.

(٣) الزمخشري، **الكشاف**، مرجع سابق، ج٦، ص١٦٥.

نوح ولوط -عليهما السلام- فقد خلُد ذكرهما بالشر، وأما آسيا ومريم فقد خلُد ذكرهما بالخير.

الفائدة السادسة: ذكر الله تعالى شأن امرأتي نوح ولوط -عليهما السلام- ترهيباً لمن أرادت أن تفعل فعلهما، وتنفيراً من السير على طريقهما، كما ذكر الله تعالى شأن امرأة فرعون ومريم -عليها السلام- ترغيباً لسلوك مسلكهما والسير حذوهما.

الفائدة السابعة: في ذكر المثلين على هذا النحو تعليم للدعاة ورجال الوعظ كيف يستفيدون من طريقة القرآن الكريم في توصيل الفكرة، ودعوة الناس وتهذيبهم، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فهذه جملة من الفوائد لضرب هذين المثلين في سورة التحريم. فلا بد للمرأة المسلمة أن تقف عندهما، وأن تأخذ العبرة من ضربهما.

ثالثاً: اضطراب الحياة الزوجية وسبل العلاج من خلال السورة

لا تخلو الحياة الزوجية من مشكلات تطرأ عليها وتعكر صفوها. والأهم في هذه الحالة أن يتغلّب الزوجان على مشاكلهما ويحلانها أولاً بأول حتى تستمر الحياة وتستقيم. وبيان ذلك فيما يلي:

١- اليمين على الزوجة وتحلّته:

اختلف العلماء في معنى التحريم الوارد في قوله تعالى: ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ ﴾ [التحريم: ١] هل هو يمين توجب الكفارة، وهل هو طلاق أم لا. وقد توسَّع الإمام القرطبي -رحمه الله- في بيان ذلك ذاكراً أقوال العلماء ومستند كل فريق. وأياً كان الرأي في هذه المسألة، فإن وصول الزوج إلى التلفظ بالتحريم أو ما شابهه من الألفاظ ينمّ عن أمر عظيم وقع بين الزوجين أدى إلى أن يتلفظ الزوج به، وقد يزيد الكلام فيه فتتفاقم المشكلة، ومن هنا، احتاج الأمر إلى وضع حل

لهذه المشكلة الطارئة على الحياة الزوجية. والحياة الزوجية لا تكاد تخلو من مشكلات تعكر صفوها، وهذه المشكلات تتراوح بين أن تكون كبيرة أحياناً أو تكون صغيرة في أكثر الأوقات. وقد تتسبب هذه المشكلات صغيرها وكبيرها في المفارقة بين الزوجين إن لم يتم التخلص منها مبكراً، فإن ترك المشكلة بغير حل قد يزيد من حدَّتها ويجعلها تتفاقم وتكبر، وتقع العداوة والبغضاء بين الزوجين، وهذا يجعلنا نفهم السر في الإتيان بحرف الفاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النساء: ٣٥]؛ لأن الإسراع في حل المشكلة بتطييب الخواطر هو أفضل حل. وقد تعرضت سورة التحريم إلى مشكلة وقعت في الحياة الزوجية النبوية، وهذه المشكلة تكمن في يمين حلفها النبي ﷺ بأن لا يقرب مارية أم إبراهيم أو ألا يأكل عسلاً عند زينب -رضي الله عنهما - على خلاف بين الروايات، فحدث تواطؤ بين نسائه ﷺ، وكان ذلك اليمين الذي أدى إلى قطيعة مارية -رضي الله عنها-، أو الامتناع عن شرب العسل الذي جعله الله له حلالاً، ولا شك في أن امتناعه عن شربه سيسبب تساؤلات تدور في نفس زوجه -رضي الله عنها-، وهذا ربما يكون له وقع سيء عليها إن هي علمت بما كان يُحاك حولها من بعض نسائه ﷺ، وسيترتب عليه قطيعة منها لهن. فهي إذن مشكلة لا بد لها من حل! وتتلخص هذه المشكلة في الأمور التالية: تلك اليمين التي حلفها النبي ﷺ، ومقاطعته لنسائه واجتنابه لهن، والعداوة والبغضاء التي ستقع من بعض نسائه ﷺ لبعض بعد أن تتكشف الأمور.

وقد جاءت الآيات الكريمات بالحل الأمثل لمشكلة حلف اليمين من وجوهها:

- فأما مشكلة اليمين التي حلفها النبي ﷺ، فقد أنزل الله تعالى تحلة اليمين، فقال سبحانه: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [التحريم: ٢]، "وتحليل اليمين: كفارتها؛ أي: إذا أحببتم استباحة المحلوف عليه؛ وهو قوله تعالى

في سورة المائدة: ﴿ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ ...﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة: ٨٩]."[1] فكفّر النبي ﷺ عن يمينه فأعتق رقبة.[2]

- وأما مقاطعة النبي ﷺ لنسائه واجتنابه لهن، فقد انتهت بنزول حكم كفارة اليمين التي فرضها الله، فرجع إلى نسائه جميعاً.

- وأما العداوة والبغضاء التي ستقع من بعض نسائه ﷺ لبعض، فإنها تزول إذا ما علمت تلك النسوة بعظم ما بدر منهن، ولذلك فتح الله لهن باب التوبة والرجوع إليه وحذّرهن من التمادي فيما تظاهرن عليه ﷺ، فقال سبحانه: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴿٤﴾ ﴾ [التحريم: ٤]؛ ولأن نساء النبي ﷺ صادقات مخلِصات تقيّات، فقد اخترن ما عند الله ورسوله ورجعن عما صدر منهن -رضي الله عنهن-، وصدق إيمانهن كفيل بإزالة أي بغضاء أو شحناء أو عداوة.

وهكذا زالت المشكلة، ورجع النبي ﷺ إلى نسائه، واستقام الأمر. وهذا الحكم باق في أمته ﷺ متى وقعت مشكلة بين الزوجين تُشابِه ما وقع في بيت النبوة.

٢- أفضل طرق العلاج لمشكلات الحياة الزوجية:

أسلفنا الذكر بأن الحياة الزوجية لا تخلو من عقبات ومشكلات تواجهها، ومن حكمة الله تعالى أن جعل رسولنا ﷺ لنا أسوة حسنة، به نقتدي وعلى خطاه نسير، ولم تكن حياته ﷺ بدعاً أو من عالم الخيال،

---

(١) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **الجامع لأحكام القرآن**، المنصورة: مكتبة الإيمان ومكتبة جزيرة الورد، (د. ت.)، ج١٠، ص٨٠.

(٢) ورد في ذلك حديث عزاه السيوطي إلى ابن مردويه عن أنس ﷺ، جاء فيه: "فنزلت آية التحريم فأعتق رسول الله ﷺ رقبة". انظر:
- السيوطي، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، مرجع سابق، ج١٤، ص٥٧١-٥٧٢.

وإنما كانت حياة طبيعية كحياة أيّ شخص من أفراد الناس، ذاق فيها الألم ومرارة العيش وعاش فيها الأمل وتعرض فيها لمنغّصات الحياة والابتلاءات والمحن، إلى ما سوى ذلك مما يعيشه الناس. وهذا سبب مهم وأساس في تأسي المسلمين به ﷺ أن كان كباقيهم. وهذه السورة كما عرفنا ذكرت مشكلة طرأت على بيت النبوة، وكان نزول الحل لتلك المشكلة الطارئة. وإذا كانت الحياة الزوجية لا تخلو من مشكلات وعقبات، كان لزاماً على الأزواج أن يتعرفوا على أفضل الحلول التي تؤسس لحياة زوجية سعيدة، وأبرز هذه الحلول من وجهة نظري:

- حُسْن الاختيار بين الزوجين من مبدأ الأمر: وذلك بحُسن اختيار الزوجة أو الزوج، فالزوج عليه أن يختار الزوجة ذات الدين والخُلُق، والوليّ يختار لابنته صاحب الدين والخُلُق كذلك، وهذا يعدّ صمام الأمان والحِصن الحصين عن الوقوع في المشكلات، وهذا الحل وقائي وليس علاجياً، بمعنى أن كلا الزوجين لا بد له أن يحرص على حُسْن اختيار الآخر بما يضمن حياة آمنة.

- الاتفاق بين الزوجين على مبادئ وأسس تقوم عليها حياتهما فيما بعد، وهذا يكون قبل تمام الزواج -في مرحلة الخطوبة كما يُقال-، وخلال هذه المرحلة يتعرف كلٌّ من الزوجين على الآخر، ويتم في هذا الفترة المكاشفة بينهما بذكر ما يحب الزوج وما لا يحب، والزوجة كذلك، فيدخل كلاهما عالم الزوجية على بصيرة من أمره، ويكون قد تعرف كل واحد منهما على طباع الآخر -وإن كانت تلك المعرفة أولية بسيطة-، وهذا يعد حلاً وقائياً كسابقه، ويمنع كثيراً من المشكلات التي قد تتسبب من عدم فهم كل واحد للآخر.

- تطويق أية مشكلة تقع بين الزوجين، وهي مسؤولية كل واحد منهما، ومعنى هذا: أن هذه المشكلة لا بدّ وأن تبقى في حدود بيت الزوجية لا

تخرج منه؛ لأن خروجها يعرض حياة الزوجين للخطر والفساد -هذا من جهة-، ومن جهة أخرى لا بدّ وأن يعمل كلّ واحد من الزوجين على حل هذه المشكلة الطارئة؛ منطلِقاً في ذلك الحل من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ومحاولة إذابة تلك المشكلة ووأدها في مهدها، وأن لا يدعاها لئلا تزداد، فإذا وقعت في المساء لا يتركاها إلى الصباح، وإذا وقعت في الصباح لا يدعاها إلى المساء، وإنما يبادران إلى حلها.

- احترام وجهات النظر: فقد يختلف أحد الزوجين عن الآخر في رأيه، فلا يعني هذا الاختلاف في وجهات النظر أن العلاقة بين الزوجين قد ساءت، لذا، على الزوجين أن يفهما هذه الحقيقة التي هي واقع في الحياة الزوجية لا فكاك عنها، وكم هي المشكلات التي وقعت بين الأزواج بسبب اختلافهم في وجهات نظرهم! فلا بد أن يعلم الزوجان أن الاختلاف أمر جِبلّي له فقهٌ، وعليهما أن يفهما فقه الاختلاف، ويتعاملا في حياتهما بناءً على هذا الفقه.
- المشكلات الكبرى في الحياة الزوجية جعل لها الإسلام حلولاً تختلف شدتها حسب نوع المشكلة وحجمها؛ فإن كان قد وجد من امرأته خيانة -كأن رأى معها رجلاً في وضع الخيانة الظاهرة-، فقد جعل الإسلام الحل في آيات اللعان في صدر سورة النور، وكذا مَن ظاهر من زوجته فقد جعل الإسلام الحل للظهار في صدر سورة المجادلة، وهكذا.

فهذه أساسيات في وضع أسلم الحلول لأية مشكلة قد تطرأ على الحياة الزوجية أو طرأت فعلاً، وهذه هي عظمة القرآن وعظمة الإسلام في الحفاظ على الأسرة طاهرة آمنة مطمئنة، يسودها الود وتحفّها السعادة ويلفّها والوئام.

خاتمة:

موضوع هذا البحث موضوع مهم ينبني عليه المجتمع وهو الحياة الزوجية، وقد ناقش البحث هذا الموضوع من خلال سورة التحريم، السورة التي تخبرنا عن جوانب مهمة في الحياة بين الزوجين. وقدمت السورة الكريمة مشهداً من مشاهد الحياة في بيت النبوة، وما طرأ عليه من عوارض أخلّت باستقرار هذا البيت الكريم، وبينت السورة أفضل سُبُل الخلاص من مثل هذه العوارض التي ربما يحدث مثلها في كل بيت، ثم عرض البحث نموذجين مهمين من النماذج التي ذكرتهما السورة، حدث أحدهما في بيتين مسلميْن والآخر في بيتين كافريْن، وقد كشف البحث عن سر ضرب هذين المثلين والحكمة منهما. وهذه الدراسة لهذه الموضوعات في هذه السورة تعد نموذجاً تاريخياً صادقاً لكل بيت وكل أسرة في كل زمان ومكان، ولن يُعدم الأزواج الخير من مثل دراسة سير الصالحين والتأسي بهم، وليس من أسوة لنا خير من نبينا ﷺ، فالحاجة ماسة إلى دراسة سيرته ﷺ والتعرف على بيته؛ من أجل بناء مجتمع سليم متين يسوده التراحم والألفة والمحبة والوئام.

وقام الباحث بالوقوف على الآيات ذات العلاقة بموضوع البحث، وبدأ يستخرج ما فيها من علوم وأحكام وحِكَم وتوجيهات وكيفية الاستفادة منها في الحياة الزوجية بين الأزواج وخاصة في هذا العصر الذي افتقر إلى كثير من مقومات الأسرة، وافتقد كثيراً من أخلاق الحياة الزوجية السعيدة، فوقعت المشكلات والخلافات بين الأزواج في كثير من المجتمعات، فوضع البحث قدم الأزواج على عتبة الزواج الصالح بذكر أهم صفات الزوجة الصالحة، وما على الأزواج إلا أن يختاروا شريكة الحياة التي تحفظ عليهم دينهم ودنياهم، وكشفت لهم عن حقيقة مهمة، وهي أن أي زواج يتعرض لعثرات، وليس معنى ذلك أن استمرار الحياة الزوجية أصبح مستحيلاً، بل على الأزواج أن يتجاوزوا كل خلاف، ويسيطروا على أية مشكلة قد تقع بينهم.

ولعل من أهم النتائج التي خرجت بها الدراسة أن هذه السورة المدنية اشتملت على ما اشتملت عليه من أحكام وحِكَم وتشريعات وآداب، وهي تعالج قضية بناء الأسرة والحفاظ على ديمومة الحياة بين الزوجين، وتذكر أسباباً للوقيعة بين الأزواج وإفساد الحياة الزوجية الهانئة وأفضل طرق الوقاية من أية مشكلة قد تقع وأفضل طرق العلاج للمشكلة إن وقعت. وهذه قضايا اجتماعية مهمة وخطيرة في بناء المجتمع والأمة والمحافظة على هذا البناء. كما اهتمت السورة بضرب الأمثال تبياناً للناس؛ لأن قياس النظير بالنظير يقرب الفكرة ويكشف مواضع العبرة ويعمق النظرة، وهذا شأن القرآن الكريم في تقرير أحكامه وحِكَمه.

علّمتنا السورة الكريمة أن يُقِرّ الإنسان بخطئه ويستغفر منه، وأن طبيعة البشر الخطأ والنسيان، فليس عجيباً أن يخطئ الإنسان ولكن الأعجب أن يستمر على خطئه. ونبّهتنا إلى أن النبي ﷺ قدوة لهذه الأمة وأسوة حسنة؛ لذا، فإن حياته ﷺ كحياة سائر البشر ويجري عليها ما يجري على حياة البشر، فلا يعجب الإنسان من وقوع الخلافات البيتية في الحياة الزوجية في بيت النبوة. وكشفت السورة عن أن الغَيْرة المذمومة مرضٌ في النساء، ولا أظن امرأةً بريئة من هذا المرض -إلا من رحم الله-، وهذا المرض قد يؤثر سلباً في الحياة الزوجية، لذا، ينبغي على الأزواج التّنبُّه إلى هذا المرض الخطير، والحَدّ منه قدر الإمكان من أجل استمرار الحياة الزوجية.

ومن أهم التوصيات التي تتوخاها هذه الدراسة أن يحرص المتقدمون للزواج على اختيار ذوات الدين والأخلاق، فإن كانت المرأة ذات مال وجمال فهو خير على خير. وكذا أولياء الأمور عليهم أن يختاروا صاحب الدين والأخلاق، ولا يكون اهتمامهم متوجهاً نحو الوظيفة والشقة والمنصب والمال، فإن اجتمعت هذه الأمور مع الدين فذلك خير على خير. كما أن على الأمة الإسلامية أن تتجه بخاطبها نحو الآخر فلا شك في أن الإنسان

-ولو لم يكن مسلماً- يسعى لحياة سعيدة وعيش هانئ، والإسلام لا يمنع غير المسلمين بأن يستفيدوا مما جاء فيه من أحكام وتشريعات، وأن يقتبسوا من أنوار هدايته لحياتهم؛ لأنه دين البشرية عامة. وقد جاء الإسلام بكل التفاصيل، وبيّن كل ما من شأنه أن يحقق سعادة البشرية سواءً في الحياة الزوجية أو في غيرها، فعلى الإنسان أن يستفيد منه، وعلى الأمة الإسلامية اختيار الوسائل الدعوية المناسبة لتحقيق هذا.

obeikan.com